فكرة

تهذيب المنهج (العلمي ـ القرآني)

البحث (الفيزيائي ـ القرآني) نموذجا

ميثاق طالب كاظم الظالمي

(٢) تهذيب المنهج البحثي (العلمي ـ القرآني) البحث الفيزيائي ـ القرآني نموذجا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن ما بُنيت عليه العلوم اليوم هو أفكار وتصورات ارتقت إلى مستوى القطع واليقين فصارت الحجر الأساس لبناء العلوم بكافة تفريعاتها ، وأضْحَت لغة الرياضيات هي اللغة الحاكمة وهي الرموز المُلغزة والحاكية بطريقة مُبهمة لتلك الفلسفات والأفكار . فوجد الإنسان نفسه محكوما بتلك الرموز والقوانين بعد أن أوجدها وصارت نتاجات العلوم المنطقية والفلسفية والرياضية منها خاصة هي العين التي يرى من خلالها حقيقة الوجود .

وعلم الفيزياء (كعلم ذاتي) يتكئ في كثير من مفاصله على نتاجات تلك العلوم والآلية منها خصوصا ، وهذا الاتكاء أمر حتمي تفرضه ضرورة العقل في استعمال الآليات والكليات المُبتنية في جُل قوانينها على رفض التناقض أو التضاد وتطلب الدقة والانضباط في كل شيء .

إلا أن الحدث الغريب المُشتَرك الذي دخلت فيه العلوم المُعاصرة (وعلى رأسها علم الفيزياء) هو ظهور أسئلة مُحيرة واستفهامات صارت من أكبر الألغاز لها ، وبدأ المفكر الفيزيائي يُوجِد لنفسه مخرجا مما دخل فيه لا برجوعه إلى نقطة الأصل المنطقية والفلسفية وإعادة النظر فيها بل بإكمال الطريق إلى حيث وصل وإيجاد وابتكار نظريات جديدة صارت بعضها حلولا ترقيعية للخروج من تلك الفجوات والألغاز .

وبالدقة فإن هذا هو الخط العام في تطور الفكر الفيزيائي والذي لا يخلو من استثناءات من هنا وهناك في إعادة القراءة بالرجوع إلى نقطة الأصل ، ربما كان بعضها ملفتا للنظر كالسؤال الألمعي الذي أثاره البرت أينشتاين([١]) وفحواه (ما هو المعنى الفيزيائي للقضايا الهندسية ؟) والذي يذكر في بعض كلماته أن

١) ألبرت أينشتاين (Albert Einstein) ألماني الأصل سويسري أمريكي الجنسية ، يهودي الخلفية ، من مواليد (١٨٧٩) أحد أهم العلماء في الفيزياء. يشتهر بـ (أبو النسبية) كونه واضع النظرية النسبية الخاصة والنظرية النسبية العامة الشهيرتين اللتان كانت اللبنة الأولى للفيزياء النظرية الحديثة ، أدت استنتاجاته المبرهنة إلى تفسير العديد من الظواهر العلمية التي فشلت الفيزياء الكلاسيكية في إثباتها . توفي عام (١٩٥٥)

البديهيات الهندسية يكتنفها الضلال والإبهام لمجرد أن يسألك شخص (هل أنت متأكد أن هذه القضايا صادقة ؟).

وهذه المحاولة صادقة في منظومة التفكير الفيزيائي ، إذ أنها صارت المفتاح لرسم هندسة كونية جديدة مُبتنية على مفهوم (الاتحاد الحملي الماهوي للزمان والمكان)(١) وكذلك غيرت هذه الشجاعة في التحرر من هيمنة البديهيات والتحيزات المنطقية والرجوع إلى نقطة الأصل لإعادة قراءة كل شيء تقريبا ، فالضوء صار بحيثية سرعته المطلق الوجودي ، والطاقة ظهرت بوجه آخر فصارت صورة للكتلة والعكس بالعكس .

لقد كانت كل هذه الإنجازات التي قدمها (العقل الفيزيائي) مُبهرة وخلابة لأن تكون إلهاماً للأجيال اللاحقة ، فصارت المعادلة السحرية بنظر المتخصصين ($E=MC^2$)(٢) الملهم

---

١) والمقصود منه : أي أن مفهومي الزمان والمكان اتحدا نظرياً بعد استقلال كل منهما منذ فترة طويلة ترجع إلى القرن السادس عشر ، فصار وصف المكان غير مستقل عن وصف الزمان وكذلك العكس ، وقد حصل هذا الأمر في بداية القرن التاسع عشر .

٢) أي أن : الطاقة (E) = الكتلة (M) ضرب مربع سرعة الضوء (C^2)

للتفكير بالسؤال الأكبر : إذا كنا كتلة (ونقاوم التعجيل) إذن ماهي حقيقتنا كطاقة ؟ أو بصياغة أخرى : كيف بدأ الوجود ؟ كيف حصلت لحظة انبثاق الوجود ؟ ومتى ؟ وأين ؟ وفي لحظة الانفجار الأعظم (بالذات) ، تلك الطاقة التي تفوق التصور والحسابات وتتجاوز حدود الخيال (يكفي لتصورها تصور عدد المجرات وسعة الكون) .

وربما راقت فكرة الرجوع الى نقطة الاصل في التأسيس المنهجي لعلماء ومفكري الفيزياء من الاتجاه الإيحائي والتوحيدي أو (المُوحدين) ، وربما إنقدح عندهم السؤال التالي:

إذا كانت الفيزياء تمتلك القوى لتغيير الهندسة البديهية ، إذن لماذا لا تستند الفيزياء لشيء أكبر من المفاهيم الهندسية الإقليدية (١) أو المنطق الأرسطي أو الفلسفة المُجردة ؟

---

١) أي تلك الهندسة البدائية التي تدرس التضمينات الشكلية لوصف الموجودات ذات الأبعاد الأحادية أو الثنائية أو الثلاثية بطريقة الاستدلال والبرهان المنطقي .

لماذا لا تستند القوانين الفيزيائية إلى أساس أكثر رصانة وأصل ليس فوقه أصل وتصديق ليس فوقه تصديق؟

لماذا لا تستند قوانيننا الفيزيائية إلى مفاهيم الكُتب المُقدسة وأهمها القرآن الكريم ؟ أليس هو صاحب أعلى مرتبة وجودية وهل يوجد شيء تجاوز مرتبته الوجودية ؟ أليس هو ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾(١) وهو حقيقة مطلقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها (اشتقاقا) من قوله تعالى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٢) وهو القائل ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾(٣) .

إذن أليست هذه مُقدمات صريحة وخطوات مُتسقة لأن تستند الفيزياء كعلم موضوعه ينطبق بدرجة من درجات الانطباق مع التصريحات القرآنية لمفاهيم ذات ابعاد فيزيائية كالساعة،

---

١) الواقعة / ٧٨ ـ ٧٩
٢) فصلت / ٤٢
٣) الأنعام / ٣٨

واليوم ، ومواقع النجوم ، والنور ،وتغير الزمن ، ونقل عرش بلقيس...الخ ؟

فَوُلِد إذن ذلك الاتجاه العلمي الذي نشأ تحت مُسوغات وعلل بعضها ذاتي قرآني (أي متعلق بالكتاب الإلهي) وأخرى ذاتي علمي (أي متعلقة بإرجاع الفيزياء إلى أصول ليس فوقها أصول) ، وأخرى غير ذاتية للعلم بما هوَ هوَ ترجع إلى الرغبة الدفينة المكنونة في (العقل الفيزيائي المُوحِّد) لأن يتعامل بدرجة خاصة مع (النص القرآني) و (التحليل الفيزيائي) .

إلا أن هذه الرغبة قد تكون غير مُمنهجة في الاتجاهين ، فالعقل الفيزيائي ربما وجد نفسه يتعامل مع اتجاه أحادي لمفهوم المعجزة في القرآن الكريم يتمثل بالسابقة الزمنية للمفاهيم والنظريات الكبيرة ، فنعتبر أن القرآن مثلا قد سبق الإنسان المعاصر والمفكر الحديث بهذه النظرية الفيزيائية أو تلك كالنظرية النسبية أو بعض تطبيقات قوانين (النظرية النسبية الخاصة) أو مبادئ النظرية النسبية العامة أو نظرية الكم أو نظرية كل شيء

(theory of every thing) وهو تضييق لدائرة وفلسفة الأعجاز التي ذكرها الكتاب الكريم.

ونذكر كبيان لذلك (باختصار) :

إن الاعجاز والمعجزة انما هي لأثبات صدق دعوى الرسالة والسفارة الإلهية ، فالإعجاز في الكتاب يعني صياغة قضية مفادها (لو كان النبي صادقا في دعواه النبوة والوحي كان لازمه أنه مُتصل بما وراء الطبيعة ، مؤيد بقوة إلهية تقدر على خرق العادة) ، إذن هذه هي القوى المكنونة وراء جريان المعاجز على أيدي الانبياء ، فإن المُعجزة تقلب الحالة والانظار المُتوجهة الى النبي من حالة (عدم الدليل على صدقه) الى (قطعية الدليل بصدقه) مُتوسلة ذلك بخرق القانون الطبيعي ، قال تعالى ﴿قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا﴾[1] وهذه الحالة تحتاج إلى المعجزة لعلاجها ، قال تعالى ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ

---

١) إبراهيم /١٠

عِبَادِهِ ﴾[١] (لاحظ المنة) ، وتحققت هذه المنة في القرآن الكريم للرد على المُشككين و المتهمين ، قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٢] وكذلك قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٣] ، فهل فَهْمَنا لأعجاز القرآن الكريم العلمي صحيح ؟

إن الإعجاز الذي ينشده القرآن الكريم ينبع من فكرة بسيطة : أن كل القدرات الذهنية التي يملكها الإنسان أو ينالها عاجزة أن تأتي بمثل مكنونات ومُرتكزات وصياغات ومفاهيم النص القرآني والإحاطة لما يُوجد في جزء ضئيل من زوايا المعرفة لهذا الكتاب الإلهي العظيم . وهذا الأمر يختلف (في تصوري)

---

١) إبراهيم /١١
٢) يونس / ٣٨
٣) هود / ١٣

كليا عن القول أن النظرية الحديثة الفيزيائية الكذائية ذكرها القرآن قبل كذا قرن .

ألا يُوقعنا هذا بمحذور (أن القرآن كان معجزاً لأقوام وأزمان وهو الآن غير معجز ، إذ أنتفى انطباق عنوان الإعجاز عليه بعد تسلسل العقل الإنساني في كشف النقاب عن الحقيقة بلا استناد أو رجوع للكتاب الإلهي) .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى لو تأملنا قليلا ربما نجد شيئا غريبا في منهجنا البحثي القرآني الفيزيائي وهو اننا نعطي من حيث لا نشعر إعجازاً لنفس النظرية العلمية الفيزيائية وليس للقرآن ، بعد الأخذ بنظر الاعتبار عدة لِحاظات في ذلك متداخلة مع بعضها ، منها:

أن تأثير الفتح العلمي على نفوسنا وقوة النظرية العلمية صار له قوة التأثير المُفترض أن ينالها الإنسان خالصا من القرآن

الكريم وهذا التأثير يذكرنا بما كتبه كارل سيغان ([1]) في كتابه (النقطة الزرقاء الباهتة) قائلا (الكون أكبر وأعظم بكثير بل ادهى وأشد أناقة بكثير مما اخبرنا به الأنبياء) متناسيا هذا الكاتب والمفكر الفيزيائي أن ما عنده لم يكن سوى نشوة ولذة معرفة واكتشاف علمي ، وهي امر آخر غير الإيمان المُتحقق في الباطن الإنساني بسبب هيمنة (المعرفة الإيحائية والنورانية)([2]) ، قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾([3]) فالإيمان والصدق ثوابت أولية ارتكازية لتذوق الإعجاز القرآني وليس الأمر مجرد دراسة بحثية جامدة وباردة ، هذا إذا تجاوزنا تبدل النظريات العلمية وتغيرها باستمرار وعلى طول أزمنة مُتعاقبة .

---

١) كارل إدوارد ساغان (Carl Sagan)، فلكي أمريكي من مواليد ١٩٣٤ يعد من أبرز المساهمين في تبسيط علوم الفلك والفيزياء الفلكية وغيرها من العلوم الطبيعية ، ولعل هذا ما أدى إلى نجاح معظم مؤلفاته . وقد كان ساغان يؤمن بأن الكون يضم حياة أو أكثر خارج إطار كوكب الأرض . حاز على وسام ناسا (مرتين) ووسام آرستر وجائزة بوليتسر . توفي عام ١٩٩٦بسبب ذات الرئة .

٢) راجع كتاب (بين التوهم والتعقل) .

٣) الطور / ٣٣ ـ ٣٤

ثم ألا يجعلنا السير بهكذا اتجاه من التفكير أن نكون قد استنفذنا العمل والبحث بنقطتين محوريتين :

الأولى: التأويل القرآني وهو الحقيقة للآية القرآنية الكاشف عن (الحقيقة النفس أمرية والواقعية) ([١]) . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن النظرية العلمية الفيزيائية والحقيقة الكونية يفترض ان تكون حقائق خارجية مدعومة بالدليل الإثباتي والذي يزوده به تارة الجهاز الرياضي وأخرى التحقق الخارجي التجريبي ، وبالتالي نحصل على ذلك التطابق بين الحقيقتين الخارجيتين : (الحقيقة القرآنية الخارجية) والمُزود لها التأويل الحقيقي التام للقرآن العظيم ، و (الحقيقة الكونية الفيزيائية) ومزودنا بها هو الأثبات الفيزيائي .

وفي تصوري – (وفهماً) من قوله تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾([٢]) – إن الأمر يتحقق

---

[١]) أي تلك الحقيقة المجردة عن مدخلية أي شيء خارجي أو ذهني آخر ، وهي مجردة إلا من هويتها الواقعية . راجع كتاب (قواعد في المستقبل المعنوي)

[٢]) يونس / ٣٩

بالإحاطة ، وهي غير مُتوفرة في الاتجاهين ، قال تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾[١] ، والإحاطة الكونية الخارجية وهي غير مُتحققة أكيدا بعد معرفتنا أن الفيزياء لم تقدم نظرية وقانون كل شيء ، وما قدمته هو محاولات لا أكثر . يقول ريتشارد دوكنز [٢] (لا يوجد دارون في الفيزياء ولو وجد لَحُلَّت مُشكلة بدء الخلق) . طبعا لا يدخل في هذا الكلام التفسير الذي هو حكاية عن الصورة العلمية (بغض النظر عن حقيقتها الخارجية) وهو درجة جيدة من التعاطي مع القرآن لِيُعلم ويُفهم ويُفقه ويُتَدَبَّر ويُتَفَكَّر في مُحكَمه و مُتشابِهة .

الثانية : القاعدة الفكرية التي نشأ منها القانون الفيزيائي وبمعنى أدق (القواعد الفكرية) التي نشأت منها القوانين الفيزيائية

---

١) آل عمران / ٧

٢) كلينتون ريتشارد دوكينز (Clinton Richard Dawkins) وهو عالم بيولوجيا تطورية وإيثولوجيا بريطاني وكاتب أدبيات علمية ، ولد في مارس ١٩٤١ ، من أبرز أعماله التأكيد على الدور الرئيسي للجينات كقوة دافعة للتطور ، دوكينز يقدم نفسه على أنه ملحد إنساني علماني شكوكي وعقلاني علمي ، مع ذلك فقد قدّم نفسه على أنه مسيحي الثقافة ، وهو معروف بآرائه في الإلحاد ونظرية التطور ، له الكثير من المقابلات في التلفزيون والراديو .

فإنها مُبتنية على الانتقال من (العادي إلى العلمي)(١) وخلق تصورات أولية استحسانية لبديهيات تلك القواعد والمصاغة لتلك القوانين . يقول البرت أينشتاين (إن الهندسة تنبع من تصورات معينة مثل تصور المستوي والنقطة والمُستقيم ونحن نستطيع أن نربط بهذه التصورات أفكارا محددة ونوعا ما نتمثلها جيدا والهندسة تقوم بجانب ذلك على قضايا بسيطة معينة (بديهيات) ونحن نميل بسبب حسن تصورنا لتلك الافكار المحددة الى التسليم بأن هذه البديهيات صادقة). وكذلك فالكثير من اصول الميكانيكيا ظهرت فعلاً من هذه الخبرات والروتين العادي جدا ، وخُذ مثلا مفهوم القوة فإن هذا المفهوم ماثل امام الفكر البشري مُنذ اقدم العصور وكل شخص يعرف ما يبذله لرفع وزن ما ، إلا ان صورتها العلمية ليست بهذا الوضوح (٢) .

وما أريد قوله أن البديهيات الاولية هي استحسانات مناظرة لأشياء لها وجود بالطبيعة وهذه الأشياء هي العادي الذي أنشأ

---

١) راجع كتابنا (قواعد في المُستقبل الفكري)
٢) راجع كتابنا (قواعد في المستقبل الفكري)

هذه المفاهيم او العلمي ، وهذا الأمر بالحقيقة (لو قبلناه) يجعلنا نغير النظر في البحث (القرآني - العلمي (الفيزيائي)) لأن القرآن هو الحقائق الكلية التي ظهرت لنا بقدر معلوم فكيف نجعل ذلك القدر المعلوم منطبقا تمام الانطباق مع الحقيقة العليا ، قال تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾(١) فهل يصح أن نلوي عنق الحقيقة العليا لتنطبق على ذلك القدر المعلوم والمظهرية الجزئية بتمام الانطباق ؟

النتائج المُحتملة إلى هنا:

١. إن منهجية البحث (القرآني – الفيزيائي) يفترض أن تمر بمرحلة توسطية وهي البحث (القرآني – القرآني) وهو أدق منهج بحثي للقرآن له تفصيل يطول شرحه ليس هنا محله والبحث الفيزيائي والرؤية الكونية تدخل كعنصر مساعد واداة مُحترمة وذات شأن لخلق تصورات أولية وانطباعات تعقلّية ، قال تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

١) الحجر /٢١

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً ﴾(١) فهذا تصور اولي تعقلي نفى تحقق الباطل (الخطأ) و (اللامنطق) استنبطه العقل الفيزيائي من ذلك التدبر ، لكن كلمة ﴿رَبَّنَا﴾ وما تحويه تفسيرا تبين الموقع والحجم لذلك التدبر.

٢. كقراءة لمستقبل علم الفيزياء أقترح أن ندخل البحث القرآني بالقواعد الفكرية والمُبتنيات الأساسية للعقل الفيزيائي وطريقة تفكيره ونظرته للأمور فتكون (القواعد الفكرية الفيزيائية قرآنية)(٢) وهو اسلوب ومنهج أكثر دقة دقة وأكثر انضباطاً بدلا من تفسير ظاهرة من هنا وهناك بتأويل لا دقي لآية قرآنية ، فإذا سرنا هكذا فإن ما أتحدسه هو رؤية أخرى للفيزياء غير الرؤية التي ورثناها،

---

١) آل عمران /١٩١

٢) وقد قمنا بتطبيق هذه الفكرة على المستوى البحثي النظري في كتابنا (قواعد في المستقبل الفكري)

قال تعالى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [١] .

٣. التلاقح العلمي بين علوم القرآن وعلم الفيزياء صار ضرورة وأمراً حتمياً ، ولا نقصد بالتلاقح فقط على مستوى المؤتمرات بل ما هو أعمق من ذلك بأن يكون صاحب الاختصاص في احدهما مُختصا ايضا بالآخر أو على اقل تقدير ذو اهتمام جدي بالآخر كي تذلل تلك الصعوبات .

ولا يعني هذا نهاية كل المشكلة ، بل إن الحل الأمثل في اعتقادنا هو تحقق موجود ذو مستوى إحاطي علمي عالٍ يفوق كل المستويات لا تخفى عليه دقائق العلوم الحديثة ولا توجد في منظومته الفكرية ألغاز محيرة . هذا من جهة، ومن جهة أخرى هو عِدْل القرآن وترجمان له ، وهو مما لا يتوفر إلا في إمامنا المنظر (عجل الله تعالى فرجه) وأرواحنا لتراب مقدمه الفداء .

---

١) الحديد / ٣

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.